دانِيل هورا

"هذا ليس ما أردناه!"

حكاية (تكاد تكون) حقيقية

الطبعة الأولى – ٢٠١٨
© دار نشر Ueberreuter ، ش.ذ.م.م.، برلين، ٢٠١٨
جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز إعادة نسخ العمل، أو أجزاء منه، إلا بتصريح من دار النشر.
أي تطابق أو تشابه مع شخصيات أو عائلات من أرض الواقع هو من قبيل الصفة وليس مقصودًا بالمرة.
مراجعة: كاثلين نويمانّ
تصميم الغلاف: سوزِه كوپّ
باستخدام صور © آي ستوك/يوچين سِرجيف و© ميلين كلاودز/كريستيان ياكوڤلِڤ
الطباعة والتجليد: مطبعة CPI للكتب، ش.ذ.م.م.
تمت الطباعة على ورق من غابات تُدَار على نحو مستدام
www.ueberreuter.de

الفصل الأول

هل سبق لك أن رأيت جثة من قبل؟ إنه منظر بشع، وخاصة إن لم تكن الجثة بكامل هيئتها. ولكن لأكون صادقًا، لم يتمكَّن أحد منَّا من رؤيتها حقًا، فيما عدا معالم الجسد أسفل الغطاء المشمَّع وفردة حذاء رياضي كانت ملقاة بعيدًا عن الجثة وكأنها تشعر بالخجل ولا تريد أن تكون لها صلة بها.

كانت هناك آثار دماء على الحذاء، وهو ما جلعني أتخيَّل أن جزءًا من القدم مازال عالقًا فيه. ولكنها كانت فكرة سخيفة ليس أكثر. كانت مجرد فردة حذاء خاوية انتُزِعَت بقوة من قدم صاحبها. وإن كان هذا الحذاء الوحيد قد بدا لي حزينًا لسبب ما.

طلب منَّا المسعفون وكذلك الشرطة وبعض من سكان القرية الانصراف. مع الأسف! ليس الأمر وكأنه يتسنى لنا رؤية جثة كل يوم.

سمعت شرطي يقول: "منتحر آخر!".

نظرنا أنا وكوكو إلى بعضنا البعض وكل منَّا يعي تمامًا ما يتحدَّث عنه الشرطيّ. نعم، منتحر آخر. لقد كان جسر السكة الحديد الواقع خلف منطقتنا السكنية هو الوجهة المفضلة لمن يريدون الانتحار. كانوا يقفون وراء أعمدة الجسر ويقفزون فجأة فوق القضبان مباشرة كما لو كانوا يريدون إفزاع القطار.

حاول شولِّه أن يلتقط بهاتفه صورة للجثة من أسفل المشمَّع، ولكن أحد المسعفين رآه وصرخ فينا بالانصراف على الفور. وانصرفنا بالفعل ولم نبالِ. لأننا كنَّا نعلم أن الأمر لن يطول حتى تهل علينا جثة المنتحر التالي.

لم نكن نتحيَّن الموت كما تتربَّص النسور في انتظار رؤية الجثث. هكذا جرت الأمور فحسب. لم تكن الأحداث هنا كثيرة بحيث تشغلنا عن انتهاز مثل هذه الفرصة. وبدا في الآونة الأخيرة أن المزيد والمزيد من الناس لا يحتملون البقاء على قيد الحياة. بدأت حياتهم بالتفاؤل والأمل في مستقبل مشرق. وكانوا يحلمون بالبيت والوظيفة الرائعة والحب والسيارة والتحف والأجهزة المنزلية الثمينة والأطفال ومثل هذه الأمور. ولكن أحلامهم ذهبت هباء. وفشلوا في إعطاء حياتهم معنى. وهذا ما قضى عليهم. لِماذا يبدأ الإنسان في التفكير بعمق عندما يتقدَّم في العمر؟ هل هو قانون من قوانين الطبيعة؟ وهل سيفيد في شيء؟ أعتقد أن معظمنا ينسى في مرحلة ما أنه كان يومًا ما مجرد طفل صغير، كما لو كان يريد أن يتبرأ من هذه المرحلة وكأنها فصلًا محرجًا في تاريخ حياته. كنتُ آنذاك في الثالثة عشر من عمري وأخذتُ عهدًا على نفسي بألا أصبح هكذا أبدًا.

تسلقنا جسر السكة الحديد وسرنا فوق أسطح الجراجات ثم قفزنا فوق الأسفلت.

قال "تومي": "شيء محزن حقًا.". كان اسمه في الحقيقية "تومسيلاڤ" ولكننا كنَّا نناديه بـ "تومي" وأحيانًا بـ "البلقاني" لأن أبويه كانا من منطقة البلقان، على الرغم من أنه هو نفسه وُلِدَ هنا.

ردت عليه "كوكو" بحدة: "ما هذا الذي تقوله!". "أنت لم تكن تعرفه من الأساس. ولا تعرف حتى ما إن كان إنسانًا طيبًا أم لا. فرجاءً لا تتظاهر بالتأثر."

ابتسم "تومي" ابتسامة عريضة وقال: "ومن يدري، ربما ينتحر أحد سكان منطقتنا يومًا ما."

ردت عليه "كوكو": "هذا كلام فارغ، لا أحد ينتحر في منطقتنا إلا بجرعة شراب زائدة."

تدخَّل شولِّه في الحديث وقال: "وماذا عن "السيدة بِربِريس"؟"

كانت "السيدة بِربِريس" هي الشخص الوحيد المعروف الذي حاول الانتحار من سكان منطقتنا. وذاعت شهرتها بعد هذه الحادثة. ولكنّ "السيدة بِربِريس" لم تنجح في الانتحار، أو بالأصح، لم تنجح كليًا. والسبب في هذا أنها لم تقفز من وراء عامود الجسر مثل الآخرين بل قفزت من فوق الجسر أمام القطار القادم مباشرة. بدا لها أنه الحل الأسلم. ولكنّ خطتها فشلت بكل أسف، وذلك لأنها ارتطمت في طريقها لأسفل بخطوط الكهرباء، فلفظتها لمسافة بعيدة وهبطت بجوار القضبان. وعندما خرجت بعدها بأسابيع من المستشفى كان من الصعب التعرُّف عليها لأن خطوط الكهرباء كانت قد أذابت وجهها. وأصبحت منذ ذلك الحين تتسلل عبر المدينة مرتدية سترة بها قبعة تغطي معظم وجهها بينما تتحدث مع نفسها، إلى أن جاءت ذات يوم سيارة واصطحبتها إلى مستشفى الأمراض العقلية.

رد "تومي" على "شولِّه" قائلًا: "هذا صحيح، ولكنها لا تُحسَب. كنتُ أعني شخصًا نعرفه."
أبعدت "بيتي" خصلة شعر حمرا عن أنفها الضخم وسألته: "أتقصد شخصًا من بيننا؟" نظر إليها شولِّه في فزع وقال لـ "تومي": "مؤكد أنك مجنون!"
التفت إليه "تومي" وقال: "لو كنتُ مكانك لانتحرتُ من زمن طويل أيها الدب البدين." ضحكت "بيتي" على تعليقه ضحكة خبيثة.
قالت "كوكو": "كفوا عن هذه السخافة! لا أحد منَّا سيقتل نفسه."
قاطعها "تومي" قائلًا: "ولكن هناك مواقف يشعر فيها الإنسان أنه لا يريد البقاء على قيد الحياة."
سأله "شولِّه": "أي مواقف قد تدفع الإنسان لذلك؟"
"يريد الإنسان أن يعيش للأبد، تلك طبيعته."
أجابه "تومي": "نعم، مثل خنازير أبيك. فهي تريد البقاء على قيد الحياة أيضًا ولكنكم لا تبالون."
"اسكت!" لم يستطع "شولِّه التفوه بشيء آخر. كان أبوه جزارًا، وهو ما كان يعرِّض "شولِّه" للكثير من السخرية من "تومي"، وأحيانًا منَّا جميعًا.
راح "تومي" يبحث عن ضحية أخرى، فالتفت إلى "بيتي" وقال لها: "أو ربما يهجركِ صديقكِ فترغبين في الانتحار."
صاحت بيتي قائلة: "اخرس!" لم تكن "بيتي" على علاقة بأحد، بل ولم يكن لديها صديق من قبل. كما أنها لم تكن لتنتحر بسبب رجل مهما حدث، بل بالعكس، كانت بالأحرى ستقتله.
هاجت "بيتي" على "شولِّه" حين رأته يضحك. التفتت إليه وألقت عليه بعض أبيات الراپ قائلة:
"إنت أبشع مخلوق – وحش وفاكرينه خلوق – إيدك ولا إيد الفيل – بتقتِّل في الخنازير." لم يتمالك "تومي" نفسه وضحك بصوت مكتوم.
أصبحت مسألة الراپ هذه عادة بيننا منذ أن كنَّا نمضي أيام الشتاء في قبو منزل "تومي". ظننا أنها ستكون سمة مميزة لنا، ولكننا لجأنا إليها لإهانة بعضنا البعض فحسب. أدمنا على هذه العادة ولم نستطع أن نكف عنها، على الرغم من أننا لم نقصد من وارئها أية إساءة، بل بالعكس تمامًا. لم أكن بارعًا في تأليف الراپ مثلهم. كنتُ دائمًا ما أمضي وقتًا طويلًا في التفكير بينما كان الآخرون يرتجلونه في لحظتها.
نظرت إلى "شولِّه" فرأيته يقف في مكانه هادئًا يبحث عن شيء في جيبه إلى أن أخرج منه منديلًا من مناديله الكاروهات الضخمة. وعلى الرغم من أن "شولِّه" كان يعاني من الحساسية بالفعل، إلا أننا كنَّا في عزّ الصيف ولم يكن هذا موسم حبوب اللقاح من الأساس. ولكن "شولِّه" كان في الوقت نفسه ممثلًا قديرًا.
التفت "شولِّه" إلى "بيتي" ورد عليها بنفس الأسلوب قائلًا: "إنتِ بيتي أم الشعر الأحمر واللسان الطويل – وأنا شولِّه أبو اللسان الطويل." ثم نفخَ في المنديل دون أن يصدر صوتًا.
ضحكنا أنا و"كوكو". دعونا نتفق أن "شولِّه" لم يكن موهوبًا في الراپ مثلي تمامًا.
في هذه اللحظة بدأ "تومي"، أفضل مغني راپ بيننا، فقرته قائلًا:
"إنتو الاتنين فاشلين – في التأليف مش فالحين – يلا شِدُّوا حيلكم – لا محدش يعبركم."
"وماذا سنفعل الآن؟"، ألقيتُ سؤالي هذا على الجميع وإن كنتُ في حقيقة الأمر أوجهه لـ "كوكو" التي كانت بمثابة زعيمة سرية لشلتنا.
قال "شولِّه": "للأسف لن نستطيع الذهاب لجسر السكة الحديد اليوم"، قال هذه العبارة بنبرة حازمة وكأنه يكشف لنا حصريًا عن حقيقة مؤسفة.
لم تكن منطقة جسر السكة الحديد سوى قطعة أرض برية بجوار رصيف المحطة، ولكننا كنَّا نشعر أنها بيتنا الثاني. كنَّا نجتمع فيها عادة بعد انتهاء اليوم الدراسي، ونمضي فيها اليوم بطوله في فترة الأجازة. كنَّا نعتبرها ملكًا لنا. ولكن هذا كان على وشك أن يتغير. لأنهم كانوا يخططون لبناء محطة للسكة الحديد في هذه المنطقة. ورأينا بالفعل بعض العمَّال يحومون حول المنطقة ويقومون بغرس أوتاد صغيرة في الأرض. فانتظرنا حتى انصرفوا وقمنا بوضها بالعكس. ولكن يبدو أن ما فعلناه لم يزعجهم بالمرة،

لأنهم جاؤوا في اليوم التالي وهمُّوا بوضع الأوتاد في الأرض مرة أخرى وكأنهم كانوا يستعدون لهذه اللحظة طوال حياتهم.

أمضينا نصف مرحلة الطفولة في هذه المنطقة وصرنا منطلقين وجامحين مثلها تمامًا. كنَّا نستلقي أحيانًا بجوار القضبان مباشرة وننتظر قدوم القطار. كان شعورًا رائعًا أن يمر هذا الوحش العملاق بصوته الرعدي على بعد مترين منَّا ونضطر للتشبث بحجر أو بجذور النباتات حتى لا ننجرف مع تياره. وكنَّا كثيرًا ما نشعل النار ونشوي عليها حبات البطاطس.

كان كل هذا على وشك أن يتلاشى ويتحوَّل إلى محطة قطار مملة. من عساه يريد ذلك؟ وأين عسانا نذهب، خاصة وأن أجازة الصيف كانت قد بدأت؟ ولم يكن السفر خيارًا متاحًا أمام أي منَّا، لأن أهالينا لم يكن بإمكانهم تحمُّل نفقاته. لم يجني أهلي الكثير من المال على الرغم من اجتهادهم في العمل. وكانت نقودهم تكفي بالكاد لتدبير أمور المعيشة. ولم يكن حال أصدقائي يختلف عن حالي كثيرًا.

اقترحت "بيتي" أن نذهب إلى قبو منزل "تومي." كنَّا نذهب إلى هناك فقط عندما يكون الجو سيئًا، فنمضي وقتنا في سماع الموسيقى أو لعب الكوتشينة.

رد عليها "شولِه" قائلًا: "ولكنّ الشمس مشرقة!" قالها بحماس وكأنه اكتشف شيئًا لم يلاحظه أحد منَّا بعد.

تلفَّتت "كوكو" إلينا جميعًا ثم قالت: "ما رأيكم أن نفعل شيئًا مفيدًا؟"

أجابها "تومي": "هذا ما نفعله دائمًا."

"لا، بل شيء فعليّ، شيء حقيقيّ، بدلًا من مضيعة الوقت في لعب الكوتشينة والنكات السخيفة ومضايقة الناس فقط. هذا كله ليس سوى لعب عيال. أعني شيئًا **حقيقيًا بمعنى الكلمة**. سنضطر قريبًا، يا رفاق، للتخلي عن منطقة الجسر، وعليكم أن تتأقلموا مع هذا الوضع منذ الآن."

كانت "كوكو" على حق. "علينا أن نفكر في الأمور مليًا"، تلك كانت واحدة من عباراتها العجيبة التي كانت تقولها بكل بساطة ودون تفكير.

قبل عامين انتقلت "كوكو" إلى منطقتنا السكنية. جاءت إلينا من برلين، وهو ما أبهرنا كثيرًا لأنها كانت الشخص الوحيد الذي نعرفه من هذه المدينة، التي لم يكن يسكنها سوى غريبو الأطوار، أو هكذا سمعنا على أي حال. أما عن أمها، فلم تخبرنا "كوكو" بأي شيء. لم يكن لها وجود في حياتها ولذلك لم نلحّ في السؤال عنها.

فوجئنا بـ "كوكو" قبل عامين، وبالتحديد في أول يوم من أيام أجازة الصيف، تقف على الجانب وتشاهدنا ونحن نلعب كرة القدم. ولكننا تجاهلناها في البداية، كعادتنا مع أي شخص جديد.

ولكني لاحظت أن الآخرين ينظرون إليها خلسة من آن لآخر مثلي تمامًا. كانت ملامحها تذكِّرني بممثلة في فيلم بوليسي قديم كان أبي وأمي يحبان مشاهدته كثيرًا. كان واحدًا من تلك الأفلام التي تخدع فيها البطلة الجميلة الغامضة البطل في النهاية، وتهرب بأمواله وكبريائه وتتركه في حالة يرثى لها. ولكن هذا الشبه لم يقتصر على ملامحها فقط، بل كانت ترتدي مثلهن أيضًا: سترة بيج من فرو الأرانب وبنطلون شارلستون رمادي، بدت وهي ترتديه كمارلين ديتريش التي كانت صورتها معلقة في غرفة أمي. وكان شعرها متوسط الطول ومموجًا بعض الشيء مثل مارلين ديتريش تمامًا. لم يكن ينقصها سوى مبسم السيجارة في طرف فمها.

في هذا اليوم نظرت "كوكو" في اتجاهي فجأة وقالت: "أنت، أيها الصبي الطويل النحيف، يا من ترتدي نظارة وتسير بعدم ثقة."

كان تومي على وشك أن يمرر الكرة فإذا به يتوقف فجأة ويتطلَّع إليها بفم مفتوح ثم يلتفت إليّ.

قال لي "شوله" بفزع: "تقصدك أنت!"، ووقف نافخًا كرشه الضخم بينما ارتسمت على وجه "بيتي" نظرة شزر مخيفة.

التفتُ إلى "كوكو" وسألتها في ذهول: "أتقصدينني أنا؟" أومأت برأسها وقالت لي: "ينبغي ألا تفصح بعينيك عن الاتجاه الذي تنوي التصويب فيه."

تعجبتُ قائلًا: "ماذا؟" وكانت كوكو قد اقتربت بعض الشيء في هذه الأثناء، فرأيت على خدها ندبة بيضاء على شكل هلال منحت وجهها الجميل بعض الجرأة.

التفت "تومي" إليها وقال: "تظنين نفسكِ خبيرة، أليس كذلك يا حلوتي؟" ولكن "كوكو" لم تلتفت لحديثه بالمرة وهو ما أزعجه كثيرًا وتركه مذهولًا، لأنه كان يظن أن لا أحد يمكنه أن يقاوم سحره وجاذبيته.

استطردت كوكو قائلة: "حقًا، أنت تنظر بالضبط في الاتجاه الذي تنوي التصويب فيه. لن يحتاج خصمك إلا وأن يعترض مسار الكرة ليستحوذ عليها."

رد عليها "شولِّه" بنبرة جادة: "ليست المرة الأولى التي نلعب فيها كرة القدم."

التفتت إليه "كوكو" وقالت: "وأنت، أيها الصبي الضخم ذو الوجه المتخشّب والشعر المُمَشَّط للوراء؛ أنت تغلق عينيك كلما رأيت الكرة تأتي في اتجاهك وبالتالي لا تمسك بها أبدًا."

تنهَّد "شولِّه" في غضب، بينما كان "تومي" لا يزال واقفًا في مكانه فاتحًا فمه من الذهول. أما أنا، فشعرتُ على عكس الآخرين بالسعادة لأن هذه الفتاة الجديدة قلبت روتين حياتنا المعتاد رأسًا على عقب. أحيانًا يحتاج المرء لدفعة من الخارج.

سألها "تومي" بصوت خافت ونبرة حذرة: "وهل تستطيعين لعب كرة القدم من الأساس؟ أم أنكِ لا تجيدين سوى الكلام." ولكن "كوكو" بدلًا من أن ترد عليه التقطت الكرة وركلتها بقوة نحو مرمى "شولِّه". ولكنه كان قد أغلق عينيه لسوء الحظ، فاصطدمت الكرة ببطنه مباشرة.

تأوه "شولِّه" من شدة الألم وهوى على الأرض وهو يحتضن الكرة بين ذراعيه وكأنها شيء ثمين.

انحنى "تومي" عليه وسأله بقلق: "هل أنت بخير؟"

ولكنّ "شولِّه" تأوه مجددًا.

التفتُ إلى "كوكو" في غضب وقلت لها: "هل أنتِ مجنونة؟"

ردت "كوكو": "ألم أقل لكم أنه يغلق عينيه كلما صوَّب أحدهم الكرة نحوه؟ ما هذا الذي تلعبونه؟ كرة قدم أم كرة شراب؟"

علَّق "تومي" قائلًا: "نعم، ولكنّ هذا لم يكن ضروريًا."

بدا على "بيتي" وكأنها ستنقض على "كوكو" في أية لحظة. ما كنتُ لأتفاجأ لو أقدمت على ذلك بالفعل، لأنها كانت مُحِبة للشجار.

توجَّهت "كوكو" نحو "شولِّه" وجلست بجواره وأخذت تتحدث معه بهدوء. رأينا "شولِّه" يومئ برأسه عدة مرات ثم نهض من على الأرض مرة أخرى. راح يُميِّل رأسه إلى اليمين وإلى اليسار ثم نفَّض الغبار عن ساقيه وأكلمنا المباراة وكأن شيء لم يكن. لم يصد "شولِّه" ولا حتى كرة واحدة حتى نهاية المباراة، ولكنه على الأقل أبقى عينيه مفتوحتين. وعندما حلَّ الظلام، توجَّهنا لاهثين والعرق يتصبب منَّا للجلوس على الدكة بجوار لعبة التسلُّق المتهالكة. وكان كل مربع من المربعات السكنية في هذه المنطقة به لعبة ممثالة للأطفال الصغار. بدت لعبتنا وكأنها فطر ضخم مصنوع من الحديد. ولكنّ هيكلها كان قد اعوجّ على مر السنين وصدأت تمامًا، بحيث صارت أشبه بماكينات التعذيب من العصور الوسطى. كما أنني لم أرَ في حياتي الأطفال يلعبون عليها.

قالت كوكو: "كان هذا ممتعًا. لنكرر ذلك كثيرًا." أومأنا جميعًا برأسنا وبات واضحًا لسبب أو لآخر أن "كوكو" ستكون واحدة منَّا منذ ذلك الحين. كنَّا نشعر حقًا وكأنها من سكان المنطقة منذ سنوات وأنها صديقتنا القديمة التي عادت إلينا بعد غياب. ومنذ ذلك اليوم أصبحت "كوكو" زعيمة سرية لشلتنا، ليس لكونها أكبر منَّا سنًا بل لمجرد أنها "كوكو".

التقط "تومي" طرف الحديث واستطرد قائلًا: "دعونا نفعل شيئًا جديدًا، شيئًا حقيقيًا!" "ربما نفعل مثل فرانكنشتاين ونصنع شيئًا حيًّا."

تمتم شولِّه قائلًا: "يا لها من حماقة."

رد عليه "تومي": "صحيح، أنت تحتقر الأشياء الحيَّة، هذا ما ورثته عن عائلتك، أليس كذلك يا سفاح الخنازير؟"

أشار "شولِّه" بيده مستنكرًا.

قلتُ لهم: "فكرة صنع شيء حيّ ليست بفكرة سيئة بالمرة. فقد حصلت في الكريسماس الماضي على صندوق يحتوي على كل ما يحتاجه المرء لتربية سرطان البحر."

صاحت "بيتي": "فلتبق إذن بعيدًا عني بهذه الديدان."

قال "شولِّه" وهو مستغرق في التفكير: "أو ربما نزرع شجرة."

قلتُ له: "نعم! ولو زرعنا حديقة سيكون أمرًا رائعًا." كانت جدتي لديها حديقة، وكنَّا نزورها من آن لآخر في عطلة نهاية الأسبوع. تذكَّرت في هذه اللحظة رائحة الطين حين يكون رطبًا بعد سقوط الأمطار واللعب في أكوام العشب المجزوز حديثًا. وتذكَّرت أيضًا الدرج المغطى بالكرز والفراولة والفاصوليا والقهوة في العصاري تحت شجرة البرقوق الظليلة مع الكيك والقشدة. كانت أيامًا جميلة، ولكنّ جدتي صار لها ثلاث سنوات متوفيَّة ولم يعد للحديقة وجود منذ ذلك الحين.

سألتني "بيتي": "ماذا تقصد بذلك؟" بينما أخذت تحك طرف حذائها البووت الضخم في الطين. لم أرها في حياتي ترتدي حذاء آخر عدا بوت العمَّال هذا. وكانت دائمًا ما ترتديه مع بنطلونات الصاعقة ذات الجيوب الضخمة التي كانت تحتفظ فيها بسكين وأحجار ودوبارة وعلب تونة، فتبدو لي دائمًا وكأنها في طريقها إلى البرية.

قبل أن يتسنى لي الإجابة على "بيتي"، علَّقت "كوكو" قائلة: "فكرة رائعة! لنزرع حديقة. حديقة حقيقية بورود وخضروات، مثلما يفعلون في ذلك البرنامج."

آه، إنه ذلك البرنامج التلفزيوني الذي شاركت فيه مجموعة رائعة من الشباب! كان القائمون على البرنامج يوفرون لهم قطعة الأرض والأدوات اللازمة للزراعة؛ من جواريف وبذور وما إلى ذلك، وكنَّا نتابعهم يوميًا على مدى ثلاثة أرباع ساعة وهم يكدون ويعرقون ويحفرون ويروون الزرع ويحصدون الثمار في النهاية. وكنتُ أشعر بالدهشة حين أراهم يستمتعون حقًا بما يفعلون، لاسيما وأنهم شباب من المدن الكبرى، وجدوا أنفسهم ولأول مرة مرغمين على بذل مجهود من أجل الحصول على الطعام. فكرة عبقرية بمعنى الكلمة!

ولكنّ "تومي" ما لبث أن كسر حالة الصمت وقال: "فكرة بشعة!"

سأله "شولِّه" بخبث: "أتخشى أن تتسخ، أم ماذا؟" وألقى عليه بعض أبيات الراپ قائلًا: "بص يا صاحبي - الشغل ده محتاج مجهود – محتاج راجل مش كتكوت – فالح في ..."، عجز "شولِّه" عن العثور على كلمة مناسبة لتكملة العبارة، فسارعت "بيتي" لمساعدته: "فالح في الرغي وبس – مش فالح غير في المنظرة – العب بعيد في السندرة."

رد عليهما "تومي" وقال: "إنت يا جزار يا قِلَّة – بيتي تلعب بيك الجُلَّة – أنا هنا الأصل والباقي تلاميذ في الفصل."

"لنتحدث بجدية الآن"، وأشارت "بيتي" بإصبعها إلى رأسها وكأنها تريد أن تقول أنها فكرة مجنونة. "لستُ دودة لأحفر في الأرض؟"

أجابها "تومي" قائلًا: "أظن أن كوكو ليست بكامل قواها العقلية."

هذا صحيح، لم تكن "كوكو" طبيعية تمامًا، بل إنسانة غريبة الأطوار وعشوائية ومجنونة وفي مقابل ذلك شخصية مدهشة وساحرة ومحبوبة ومليئة بالأفكار المثيرة. ولو لم تكن "كوكو" بيننا في هذه اللحظة، لتنقَّلنا كعادتنا من فكرة لأخرى وتخلَّينا عن فكرة الحديقة من أجل فكرة أخرى سخيفة. ولكنّ "كوكو" لم تكن تمزح فيما يبدو.

ردَّت "كوكو": "دعونا نجرب، لن نخسر شيئًا." ثم التفتت إلى "تومي" ونظرت به بتحدٍّ وقالت: "زراعة الحدائق ليست للضعفاء."

قال "تومي" معترضًا: "انتظري لحظة..."

ولكنّها قاطعته واستطردت قائلة: "إن زراعة الحدائق لعمل شاق حقًا ويتطلب تركيزًا وقوة واستجابة سريعة للتغييرات. علينا أن نتعرف على الوقت المناسب لزراعة نبات ما، وكيفية التسميد

والحفر والري ومكافحة الآفات وما إلى ذلك. هذا العمل يحتاج لمثابرة وعناية مستمرة. لن نحقق شيئًا لو تركنا كل شيء ينمو هكذا بلا رعاية ولا تخطيط. ستكون فوضى! والحياة في حد ذاتها ليست سوى فوضى كبيرة وعلينا أن نحاول السيطرة عليها قدر الإمكان، والأمر نفسه ينطبق على الحدائق. فهذا ما يحفز الإنسان ويجعله أقوى."

قالت "بيتي": "هذا يبدو منطقيًا." وأبعدت شعرها الأحمر، الذي كان منسدلًا أمام عينيها كالستارة، عن وجهها.

نظر "شولِّه" إلى الأفق وكأنه ينظر إلى المستقبل وقال: "أستطيع أن أراها أمامي!"

وقالت "كوكو": "لِماذا لا نزرع البطاطس بأنفسنا ونقوم بشيها عند الجسر؟ عندئذ لن نضطر لسرقتها من أهلنا على الأقل."

وقال "تومي" مقترحًا: "ولِمَ لا نزرع الحشيش؟" ولكن "بيتي" قاطعته على الفور وقالت: "يا له من قرف. كم أنت غبي يا بلقاني يا أحمق!" لنتفهَّم موقف "بيتي" نحتاج لأن نعرف أن أختها كانت مسجونة لأنه تم ضبطها وهي تبيع المخدرات.

اقترحتُ عليهم قائلًا: "ولكن زهور التيوليب لا بأس بها، أليس كذلك؟" لم أكن من عشَّاق التيوليب من الأساس، ولكني أردت فقط أن أشارك في الحديث. وسرعان ما رحت ألوم نفسي سرًا على هذا الاقتراح: "فكرة رائعة يا غبيّ. لماذا قلتَ التيوليب وليس الورد البلدي مثلًا؟ كان بإمكانك أن تهديها لكوكو ليعرف الجميع حقيقة مشاعرك."

قالت "كوكو": "التيوليب مثالية!"

وقال شولِّه: "ولو تمكَّنا من القيام بذلك بشكل صحيح، سنتوسَّع في زراعة البطاطس ونتمكَّن من بيع الفائض."

ولكنّ "بيتي" ردت عليه بفظاظة ووصفته هو الآخر بالغبي.

سألها "تومي": "وكيف ستنفذين هذا المشروع؟ ليست لدينا أدنى فكرة عن مثل هذا الأمر."

بدأ "شولِّه" كلامه بنحنحة ليلفت انتباهنا إليه ثم قال: "أبي وأمي.."

ولكن "تومي" أشار له بيده بلا مبالاة وقاطعه قائلًا: "أبوك يقتل الحيوانات ثم يحتفل بفعلته هذه مع أصدقائه القتلة." كان "تومي" يرغب في أن يصبح نباتيًا ولكنه لم ينجح في ذلك أبدًا. لم يستطع أن يتغلَّب على حبه للحوم ولذلك كان ينفس عن غضبه بسخريته المستمرة من والد "شولِّه". ولكنّ "شولِّه" لم يدع أحد يستفزه بسهولة. كان يرى أن هذا دون مستواه. فواصل حديثه وكأن شيئًا لم يكن وقال: "أبي وأمي لديهما حديقة." "وهناك..."

قاطعه "تومي" مجددًا وأكمل عبارته قائلًا: "... يتغوَّط أبوك على الفراولة لتنمو أسرع على ما يبدو."

صاحت فيه "بيتي" بصوتها الجهوري العجيب الذي كان دائمًا ما يصدر منها حين تغضب: "دعه يكمل كلامه." "لديهما حديقة بالفعل."

رد "شولِّه" ووجه يشع حمرة: "سبق وأكلتَ من فراولتنا."

أجابه "تومي": "نعم وظللتُ أتقيأ لثلاثة أيام."

وأيَّدته "بيتي" قائلة: "هذا صحيح، أنا شعرتُ بالغثيان أيضًا." ما أن قالت "بيتي" هذه العبارة حتى بدأوا جميعًا يصيحون في وجه بعضهم البعض فيما عداي أنا و"كوكو".

نظرت إلى "كوكو" فوجدتها كعادتها دائمًا، حريصة على ألا تتدخَّل في أي شجار. كانت تبتسم ابتسامة خفيفة وتنظر إلينا من بعيد وكأنها ملكة تنظر إليها رعيتها. أما أنا، وكنتُ أنا في المقابل ذلك الذي يطلقون عليه 'صانع السلام'. كنت دائمًا ما أحاول أن أصرف انتباه الآخرين عن الشجار وأبيّن لهم مدى تفاهة مثل هذه المشاجرات بين الأصدقاء. في بعض الأحيان كنتُ أنجح في تهدئة الشجار، وفي أحيان أخرى كان الجميع يلتفت نحوي ويصيح في وجهي في نفس واحد. رأى البعض أنني أحب أن أتجنَّب الصراعات وأحب العيش في وئام وانسجام. هذا كلام فارغ بالطبع! كل ما في الأمر أنني لم أكن أحب الشجار. حسنًا، ربما كانوا محقين بعض الشيء. ولكن، حتى وإن كانوا كذلك، أليست الحياة قصيرة جدًا كي نقضيها في حروب؟ خطرت ببالي "كاتيا فان ريبفينكل "، عالمة الأنثروبولوجيا العبقرية من هولندا

التي كنتُ أعشقها كثيرًا. فقد قالت ذات مرة أن لكل إنسان دورٌ محدد في إطار الجماعة. سواء في العائلة أو الأصدقاء أو الحكومة أو حتى جماعة المافيا. وكل فرد من أفراد هذه الجماعة سيقوم بالدور الذي يجيده على النحو الأمثل. أنا على سبيل المثال، كنتُ أجيد القيام بدور الوسيط بينما لم أصلح لدور القائد. وينبغي على كل إنسان أن يعرف دوره في المجتمع، ولكن هذا لا يعني أنه غير قابل للتغيير. ولكن، لِماذا سيتغير؟

"ما رأيكم أن نبحث عن مكان لحديقتنا؟" نظر الجميع إلى "كوكو" في صمت وأومأوا برؤوسهم. واتفقنا جميعًا على أن نذهب للبحث عن مكان مناسب لزراعة حديقة.

قلتُ لهم: "ولكن ليس عند جسر السكة الحديد. سيطردوننا من هناك مجددًا."

قالت "بيتي": "لنذهب للجسر الآخر إذن، فهم لا يذهبون إلى هناك."

رد عليها "شولِّه" قائلًا: "ولكنّ الأرض هناك مليئة بالحشائش الضارة. سيكون علينا أولًا أن نستأصلها ونقتلعها من جذورها."

ضحك "تومي" متذمرًا: "بالحرق، أليس كذلك يا شولِّه؟ تمامًا مثلما يفعل أبوك. يتخلص من كل شيء بغض النظر عن الخسائر. أنت عبقري حقًا!"

قالت "كوكو": "بل فكرت أن نزرع الحديقة داخل منطقتنا السكنية." لم يتفوه أحد منَّا بكلمة. استطردت قائلة: "لو قمنا بزرع الورود أو حتى الخضروات في منطقتنا السكنية فسيستفيد الجميع منها."

طالما نجحت "كوكو" في إثارة ذهولي. كنتُ أشعر أحيانًا أنني نجحت في فهمها وكشف غموض شخصيتها، ولكنها كانت مثل الحرباء، تتلوَّن باستمرار وتفاجئني في كل مرة بشيء جديد. ما كان من الممكن أن يتوصَّل شخص آخر لمثل هذه الفكرة العبقرية والبديهية.

ولكن، أين عسانا نزرع حديقة في هذه المنطقة؟ هل على مساحات العشب التي تفصل بين العمارات؟ أم بمحاذاة الشارع على الشريط الأخضر الضيق؟

لم أكن واثقًا تمامًا من صحة هذا الاختيار.

قالت "كوكو": "هناك قطعة أرض صغيرة بجوار الجراجات الثلاث. سنزرع حديقتنا في هذا المكان."

نظرنا جميعًا في اتجاه الجراجات الثلاث. هذا صحيح، هناك بالفعل قطعة أرض أمام الجراجات لم تقم إدارة المنطقة برصفها أو تغطيتها بالخرسانة وكأنها سقطت منهم سهوًا. كانت تمتد على مساحة ٩ متر مربع بجوار العمود الحديدي الذي كان مخصصًا لتعليق السجاد وتنفيضه، وكانت تبدو كالبحيرة العكرة وهي مُحاطة من ثلاث جوانب بالطوب الرماديّ الأجوف الذي يحبس العشب بداخله ومن الجهة الرابعة بجدار الجراج الضخم.

نادرًا ما كان هناك أحد يمر من هذا المكان، ولم أرَ في حياتي شخصًا ينفض سجادته على هذا العمود. أي أنه كان الموقع المثالي لمشروعنا.

وقفنا نحن الخمسة على حافة قطعة الأرض وحدثتنا "كوكو" قائلة: "سنبدأ بتقليب التربة ووضع البذور، وسننتظر لنرى ماذا سيحدث."

تساءلتُ بيني وبين نفسي كيف نجحت "كوكو" في ذلك مجددًا. كيف استطاعت أن تثير حماسنا لهذه الفكرة السخيفة. كانت في نظري فنانة، بل رسَّامة ولكن من نوع خاص، لأنها لم تكن ترسم بالألوان بل بالأفكار. كان هذا هو فنها.

ولكنّ "شولِّه" لفت انتباهنا لمسألة أخرى: "لا، ليس الأمر بهذه السهولة. لكل نبات موسم، علينا أن ننتبه لهذا الأمر. والحفر أيضًا له أصول."

ربت "تومي" بقوة على كتف "شولِّه" وقال له: "صدقت أيها الجزار."

التفتت "بيتي" لـ "كوكو" وسألتها: "أتظنين يا كوكو أن شيئًا قد ينمو هنا على الإطلاق؟"

استبق "شولِّه" "كوكو" ورد على "بيتي" قائلًا: "تلك الأرض مثالية للزراعة."

ثم تقمَّص شخصية الخبير وقال: "إنها تربة كثيفة وخصبة. سترون، سينمو الزرع في لمح البصر."

قالت "كوكو": "لنزرع بضعة أحواض بالخضروات وحوضين بالزهور."

أيدتها "بيتي" وقالت: "فكرة جيدة."

قال "شولِّه": "يمكننا زراعة البصل هنا." ولكن "بيتي" و"تومي" ضحكا على اقتراحه.
وعلَّق الأخير قائلًا: "لست بحاجة للبصل من أجل البكاء، فأنت زنَّان بالفطرة."
رد عليه "شولِّه" باستياء: "فلتخرس!" وإن كان "شولِّه" زنَّان بالفطرة بالفعل. رأيتُ ذلك بنفسي بضع مرات. ولكن بكاء "شولِّه" لم يكن بكاءً حقيقيًا بالمعنى المفهوم، بل بالأحرى تكتيكًا يلجأ إليه مسبقًا لو ما خشي الوقوع في المتاعب.
قالت "بيتي": "ربما يستطيع شولِّه أن يأتينا بالبذور من حديقة أبويه."
صاح "تومي" قائلًا: "نعم، بذور السجق المحمَّر!"، وضحك بنفسه على نكتته السخيفة.
قالت "كوكو": "بل كنتُ أفكِّر في زراعة الخيار والبطاطس والجزر والكرنب الفجلي وما إلى ذلك."
اقترحتُ قائلًا: "يمكننا أن نزرع الفراولة أيضًا."
وأخيرًا تحمَّس "تومي" وصاح: "پاپريكا!."
وبخه "شولِّه" قائلًا: "كلام فارغ. إنه لا ينمو هنا من الأساس."
صاح "تومي" مرة أخرى: "كوسة."
رد عليه "شولِّه": "هل أنت سكران؟"
أجابه تومي: "لا، أتريدني أن أخضع لتحليل لتتأكد؟"
قال شولِّه بنبرة متعالية واعظة: "علينا أن نتحرى الدقة ولا ينبغي أن نترك شيئًا للصدفة."
استغرقنا بعض الوقت في التفكير وراح كل منَّا يقترح أنواعًا من الفاكهة والخضروات على الآخرين. وسرحنا مع الفكرة حتى سيطرت علينا تمامًا.
ولكني شعرتُ بيني وبين نفسي أن هذه الحديقة ستتدمَّر في ظرف يومين على الأكثر، إما على يد أطفال أو من قبل شباب أو كبار سكارى.
التفت إلى نافذة غرفة نوم "بوبّو" والدته لأنني ظننت أنني لمحت حركة بطرف عيني. ورأيتُ بالفعل الستارة وهي تطير بعيدًا عن النافذة وكأن شخصًا كان يقف ورائها للتو ويتصنَّت علينا. لم أكن واثقًا، ربما يكون الهواء هو الذي طيَّر الستارة. لا يهم. علينا ألا نطارد الأشباح. هكذا أوصتنا "كوكو" مرارًا وتكرارًا.

الفصل الثاني

كان مشروعنا السكني يقع على حافة "مدينة هاء" ويضم سلسلة مبانٍ، كل منها مكوَّن من أربع طوابق ويتكئ على المبنى المجاور له كجندي مرهق يرتدي ثيابًا رثة. وانقسم المشروع إلى أربعة مربعات سكنية على هيئة صف واحد ويضم كل منها أربعة عمارات متشابكة معًا. لم يكن مسوحًا لنا بدخول الحدائق الهزيلة التي كانت تفصل بين كل عمارة وأخرى، ولكننا كنَّا نلعب فيها كرة القدم في جميع الأحوال.
كانوا يسمون مدينتنا السكنية بـ "الطاحونة القديمة"، ورغم أن صفة "القديمة" كانت تنطبق عليها بالفعل، ولكن الطاحونة في حد ذاتها لم يعد لها وجود منذ زمن طويل. إلا إذا كانوا أطلقوا عليها هذا الاسم تيمنًا بذلك النبيل المجنون "دون كيشوت" الذي حارب طواحين الهواء ظنًا منه أنهم فرسان معادية.
في هذه المدينة أيضًا حارب الناس أعداء وهميين تحت مسميات مختلفة، إما الدولة أو مكتب العمل أو "هؤلاء بالأعلى" أو ببساطة الحياة التي كانت حمَّلهم فوق طاقتهم، وكان منهم من يحارب أبنائه لأنهم في اعتقاده يحرمونه من عيش حياته كما ينبغي.
بُنِيَت القرية في الستينيات من القرن الماضي لذوي الأجور والأذواق المتدنية. وتدنَّى مستواها مع مرور الوقت أكثر فأكثر، بما في ذلك سكانها. لم يكن الحال في مربعنا السكني بهذا السوء، على عكس المربعات السكنية الأخرى التي لم يكن يسكنها سوى المعتوهين والمرضى، منهم من كان لديه عين واحدة ومنهم من كان يعاني من تضخُّم في الغدة الدرقية ومنهم من كان مختلًا عقليًا بشكل أو بآخر. ولم نكن

عادة نصادق الأطفال من المربعات السكنية الأخرى، بل يبقى كل منَّا في حدود مربعه السكني، حيث يوجد ما يكفي من الأطفال لنصادقهم. كان "شولِّه" و"بيتي" و"تومي" يسكنون في المربع السكني الرابع، وأنا و"كوكو" في المربع الثالث ولكن كل منَّا عند مدخل مختلف. وكان المربع السكني الأمامي المطل على الشارع هو الأسوأ على الإطلاق، ويسكنه أناس أشرار وهم: "الخمير الحمر"! ربما كان للأمر علاقة بمصنع الإطارات المجاور التي كانت الرياح تحمل عوادمه في اتجاه مدينتنا السكنية.

وكان سكان المربع السكني الأمامي دائمًا ما يستنشقون القدر الأكبر من هذه العوادم، حتى كانوا بمثابة فلاتر تنقي هواء لباقي المدينة. وأنا من أطلقتُ على هؤلاء البلطجية اسم "الخمير الحمر"، لأن زعيمهم، "فريدي"، كان حين يضيّق عينيه يبدو كشخص أسيوي أمهق. قيل أنه كان يفعل ذلك لأن عينيه كانتا حساستين للضوء. وعلى الرغم من أنه هو نفسه كان يرتدي نظارة، أو بالأصح نظارة داكنة كنظارات الطيارين، إلا أنه وشلته كانوا دائمًا ما يفضلون ضرب مرتدي النظارات عن غيرهم.

"هذا ما كان يفعله "الخمير الحمر" الحقيقيون أيضًا." قلتُ ذلك لـ "كوكو" في اليوم الذي وقعتُ فيه مرة أخرى في قبضة هؤلاء البلطجية وصفعوني على وجهي. كنتُ قد قرأت كتابًا عن "الخمير الحمر" فحكيتُ لها عنهم: "كانوا يعيشون في كامبوديا في السبعينيات. وكانوا يقومون بقتل أي شخص يرتدي نظارة بمنتهى البساطة، ظنًا منهم أن هؤلاء الأشخاص أذكياء وأعلى منهم مكانة."

وإن كنتُ لم أشعر يومًا أنني أذكى ممن لا يرتدون النظارات، بل على العكس تمامًا. ما علاقة ضعف العينين بالقدرة العقلية من الأساس؟ كما أنهم ما كانوا سيستفيدون شيئًا من قلتهم حتى وإن كان هذا صحيحًا. فكان "فريدي" كلما مرَّ، هو أو أحد أتباعه، بدراجاتهم البخارية الفارهة بشخص يرتدي نظارة، كانوا يأمرونه بصوت مخيف بنزع "الدراجة" من على أنفه. وكان عليّ أن أمتثل لأوامرهم على الفور من دون أي اعتراض. وقبل أن يدعونني أمضي في طريقي، كانوا ينهالون عليّ ببضع صفعات أو "دش أقلام"، على حد وصفهم. ثم يودعونني بضحكة شريرة قائلين: "نراك قريبًا يا خِلَّة!" كانوا يسمونني "خِلَّة" لأنني كنتُ نحيفًا وأطول بكثير من صبي على مشارف الرابعة عشر. ولذلك نصحتني "كوكو" بأن أعتبر نفسي بمثابة سارية علم يجتمع الجميع حولها وقت الشدائد. وعندما رأت نظرتي المتشككة أضافت قائلة: "لديك ميزة خاصة، ففي المعارك يسير حامل الراية في المقدمة. كنوع من التحفيز."

ولكني لفتّ انتباهها قائلًا: "دائمًا ما يكون حامل الراية هو أول من يُذبَح!"

ردت عليّ قائلة: "هذا لن يكون مصيرك. ستصير شخصًا مميزًا حين تكبر."

قلتُ: "سأصير كاتبًا." هذا ما أردته حقًا.

استطردت "كوكو" قائلة: "أيًا كان. أنت شخص مميز، وهؤلاء البلطجية يدركون ذلك. ويشعرون أنك لست واحدًا منهم. ولكنهم في حقيقة الأمر ليسوا سوى مجموعة من الفَشَلَة. يعيشون الآن 'عصرهم الذهبي'، كما يقولون، ويستمتعون بأحلى فترات حياتهم. ولكن، انتظر فقط حتى يكبر هؤلاء. سيدركون عندئذ أنهم عاجزون عن تحقيق أي شيئ فيما عدا إنجاب بضعة أوغاد مثلهم والشرب حتى الثمالة، في الوقت الذي ستبتسم لك فيه الحياة وستكون أنت من يضحك في النهاية."

كان هذا تصرفًا نموذجيًا من "كوكو". وعلى الرغم من أن هذا الحديث لم يغير شيئًا من الواقع، وكنتُ لا أزال ذلك الشخص الفاشل، إلا أنه رفع من معنوياتي.

عوَّدت نفسي على عدم أخذ هذه الصفعات على محمل شخصي. لم يكن هذا هو المقصود من ورائها، بل كانوا يفعلون ذلك بحكم طبيعتهم. إن مثل هؤلاء الأشخاص يشعرون برغبة ملحة في ضرب شخص ما، حالهم مثل حال أسماك القرش التي تهجم على أي شيء يتحرك أمامها، سواء كانت جائعة أم لا. لأن حمضهم النووي مبرمج على الاستبداد بالأسماك الأصغر حجمًا. وفي مدينتنا كان "الخمير الحمر" على رأس السلسلة الغذائية ولذلك لم يكن مسموحًا لنا بالتذمر حيالهم. كنَّا نحتمل ما نتعرض له كجزء طبيعي من حياتنا. كان بإمكاننا أن نخبر الكبار بالطبع. ولكن، هل كان ذلك سيعود علينا بأي فائدة؟

كان الآباء وكل من هم فوق العشرين من عمرهم يعيشون في عالم مواز لم تكن له علاقة تُذكَر بعالمنا. كنَّا نتحرك بينهم كالظلال، وكانوا يرون فقط ما يريدون رؤيته أو ما نريهم إياه. لم يكن أبواي بهذا السوء. قلما كانا يثيران أعصابي، وكانا يحرصان دائمًا على أن يكون الجميع في أحسن حال. فيما عدا ذلك، كان لكل منَّا عالمه الخاص. وكان هذا الاتفاق الضمني يصب في مصلحة جميع الأطراف المعنية.

سألتني أمي وهي تضع حذائها استعدادًا للذهاب إلى العمل: "ما هي خطك لليوم؟" كانت تبدأ عملها في الأجازة في وقت متأخر خصيصًا من أجلي، حتى يتسنى لنا أن نفطر سويًا. أما أبي، فكان دائمًا ما يذهب إلى عمله في وقت مبكر جدًا.

قلتُ لها: "المعتاد. سأمضي الوقت مع الشلة."

وأومأت برأسي. أعطتني أمي قبلة على جبيني وانصرفت. توجَّهت لغرفتي لأستمع لبعض الموسيقى. كنتُ قد استوليتُ منذ فترة قصيرة على جهاز الاستيريو الذي أراد أبي أن يتخلَّص منه. وكنتُ قبلها بأشهر قليلة لا أزال غارقًا في قراءة القصص، أبحث عن الكنز في بحار الفضة مع "شاترهاند العجوز" وأطارد المجرمين مع "المحققين الثلاثة" وأضحك على "نوادر الكانجارو". ولكنّ حالي تبدَّل بين ليلة وضحاها. قمتُ بوضع كل هذه الكتب في الدولاب وأخبرتُ أبي وأمي أن طفولتي انتهت وأنني أريد الاستماع إلى الموسيقى من الآن فصاعدًا. ضحكا في البداية، ولكنهما شجعاني بعد ذلك حين أصريتُ على موقفي. بدأتُ بالاستماع إلى اسطوانات أبي القديمة التي كانت مركونة بغلافها في الدولاب. كان من بينها ألبومات لـ "داڤيد بووي" و"مادونا و"إمينم" و"ماندو دياو". أخبرني أبي أنه كَبِرَ كثيرًا على الاستماع إلى الموسيقى. وكان محقًا في ذلك. لكم أن تتخيَّلوا كم سيكون محرجًا لو تصرف شخص في الأربعين مثله وكأنه في العشرين. كما أنه لم يعد ملمًا بآخر المستجدات في عالم الموسيقى.

ولكن استماعي لهذه الأغاني كان يشعرني وكأنني أرتدي ملابس أخي الأكبر القديمة. كان الآخرون يسخرون مني لأنني أستمع لهذه الأشياء العتيقة من الألفية الماضية، بدلًا من "كانييه وِست" أو "ريانا" أو "نيكي مِناج" أو "سكريلِّكس". جئتُ من زمن آخر، ما المشكلة في ذلك؟

اسمتعتُ إلى أولى اسطوانات "فرانتس فِرديناند" بالكامل وشربت كوبًا من الشاي وتأخرت كالمعتاد. هذا لا يعني أنني كنتُ دائم التأخير، لا، لم أكن كذلك. حسنًا، لن أكذب عليكم. كنتُ أتلكأ قليلًا في معظم الأحيان وهذا بسبب الأفكار الكثيرة التي كانت تدور في رأسي والتي كان عليّ أن أدونها، وهو ما كان عليّ أن أتذكره أيضًا. وكل هذا كان يستغرق بعض الوقت بطبيعة الحال. كان تأخيري هذا كثيرًا ما يعرضني للمتاعب في المدرسة. ولكنه لم يكن عن سوء نية، كما زعم بعض المدرسين. لم يكن بيدي حيلة فحسب.

وصلت إلى مكان حديقتنا المستقبلية لأجد الجميع قد سبقوني إلى هناك.

أردتُ أن أسأل عن سبب اجتماعهم هكذا ولكنني لم أنهِ سؤالي حين رأيتُ "تومي" ينظر إليّ وكأنه يحذرني. كانوا يقفون هناك دون حراك كالتماثيل، وبدت الجدية واضحة على وجوههم. كان وجه "شولِّه" شديد الحمرة بينما ضيَّقت "بيتي" عينيها كمن يحاول أن يرى شيئًا بوضوح. أما "كوكو"، فكانت تحدِّق إلى الأرض في حزن.

قلتُ بصوتٍ خافت: "تقفون هنا وكأنكم في جنازة."

نظر إليّ "تومي" بغضب وقال: "ششش..."

حرَّكت شفتيّ دون أن أصدر صوتًا وقلتُ: "ماذا حدث؟"

أشار لي "توميسلاڤ" بسبابته محذِّرًا. أومأت برأسي وتجهَّمت مثلهم. نظرتُ إلى الأرض كالأبله وأنا أتساءل بيني وبين نفسي عن سبب كل هذا. بعد لحظات قليلة لاحظتُ حركة خفيفة بينهم وكأن الروح دبَّت في أجسادهم مرة أخرى. وعادت تعبيرات وجوههم لسابق عهدها.

أومأ "تومي" برأسه وقال لي بدراية: "إنه الهامستر."

قلتُ: "آه... الهامستر!"

قالت "بيتي": "شيء حزين حقًا!"، وملَّست على شعر كوكو لتواسيها.

تساءلت قائلًا: "ماذا حدث للهامستر؟"

ولكنني لم أتلق ردًا.

قالت "كوكو" بحزم: "هيا بنا، سنذهب الآن إلى المكتبة." وانطلقت في طريقها وتبعها الآخرون.

ناديتُ عليهم قائلًا: "انتظروا لحظة. أخبروني، ماذا حدث للهامستر ولِماذا نحن ذاهبون إلى المكتبة؟" ولكنهم لم يجيبوني هذه المرة أيضًا.

لو نصحتني "كوكو" في موقف كهذا لكانت ستقول لي: "اصرخ وأسمعهم صوتك! اعلن عن وجودك! لا تنتظرهم يأتون إليك." هكذا كانت تنصحني بالتخلي عن خجلي الشديد. وكانت محقة أيضًا، أو ربما محقة بعض الشيء. كنتُ كثيرًا ما أرضخ للآخرين. ولكنّ هذا الأمر لم يكن يزعجني حقًا. لم أكن أحب أن أتدافع مع الآخرين لأكون في المقدمة، بل كنتُ بالأحرى من النوع الذي يفضِّل مراقبة الموقف بعيد.

في طريقنا إلى المكتبة سألتني "كوكو" ما إن كان معي كارنيه الاستعارة الخاص بي. أومأت برأسي، فقد كنتُ دائمًا ما أحمله معي. من يدري متى قد يحتاج المرء لكتاب؟

حاولت مرة أخرى أن أسأل عن سبب ذهابنا للمكتبة. ولكنّ "كوكو" أدارت عينيها يمينًا ويسارًا بامتعاض ولم تتفوه بشيء. كم كانت متعجرفة في بعض الأحيان!

ما أن دخلنا المكتبة حتى رأتني "السيدة پفيرش"، أمينة المكتبة، ولوَّحت لي. كانت "السيدة پفيرش" امرأة كبيرة في السن قوامها ممتلئ بعض الشيء.

نادتني قائلة: "أنا سعيدة لأنك أتيت. احتفظتُ لك ببعض الكتب."

علَّق "تومي" بصوت خافت قائلًا: "ماذا تقصد بـ 'احتفظت لك ببعض الكتب' يا دون چوان عصرك؟ هل هي شفرة سرية بينكما؟ شيء رومانسي؟"

"فلتخرس فحسب!"

ولكنه ربت على كتفي بقوة وقال ضاحكًا: "هل يقرأ كل منكما للآخر فقرات رومانسية من الكتب؟".

قلتُ له: "أليس من الأفضل أن تحكي لي عما حدث للهامستر؟"

نظر إليّ بجدية وقال: "قمنا بدفنه."

سألته: "في حديقتنا؟" أومأ تومي برأسه.

فسألته مجددًا: "هامستر كوكو؟ 'خِلف خلاف'؟

" أومأ تومي برأسه مرة أخرى.

"دفنتوه وهو حيّ؟"

نظر إليّ "تومي" باستياء وقال: "طبعًا، بعدما صلبناه!" "ما هذا الكلام الفارغ الذي تقوله؟ ماذا تظن؟ مات الهامستر بالأمس."

سألته: "كيف مات؟" فهز كتفيه فقط ولم يقل شيئًا. التفتُ إلى "كوكو" ولكني وجدتُها منهمكة في الحديث بصوت خافت مع "شولِّه".

قالت "بيتي": "انحشر فيما يبدو داخل ماكينة من ماكينات أبيها. لأنه لم يكن قد تبقى منه الكثير ليُدفَن."

ابتلعت ريقي في خوف وتذكرت في هذه اللحظة ذلك الكتاب الذي كنتُ قد قرأته منذ بضعة أشهر وأخبرتُ الآخرين بشأنه.

كان الكتاب يحكي عن عمَّال سور الصين العظيم وكيف قدَّموا قرابين بشرية للآلهة للحصول على مباركتهم من أجل بناء السور. وقد نجح الأمر نوعًا ما، فالسور مازال قائمًا حتى الآن.

ولكنّ "خلف خلاف" المسكين مات وهو في عز شبابه؛ ونحن حتى لم نفكِّر في بناء شيء بحجم السور. حسنًا، كان لا بد من دفنه في مكان ما، فما المانع إذن من دفنه هناك؟

ولكنّ لا أحد يستحق هذا المصير، لا أحد يستحق أن تنتهي حياته في ماكينة من ماكينات والد "كوكو" ولا حتى الهامستر. ولكنها كانت مسألة وقت فحسب. هذا الحادث الأليم كان مقدرًا له أن يحدث في هذه الشقة التي كانت في الوقت نفسه ورشة عمل. كان علينا أن ننتبه لئلا ننحشر في واحدة من هذه الاختراعات. فبعض هذه الماكينات كان يشبه القنابل الموقوته. كانت الأدخنة تتصاعد منها وتطلق دويًا وصفيرًا. ولم يكن أحد يعرف الغرض منها سوى والد "كوكو". كم مرة وقفتُ أمام واحدة من هذه الاختراعات التي قالوا عنها أنها ستساهم في تطور البشرية. واتضح فيما بعد أنها ليست سوى ماكينات لإزالة فضلات الكلاب من على الأحذية أو أجهزة "ثلاثة في واحد"، كما يطلقون عليها؛ تقلِّم مخالب

القطط وتحمِّمها وتشفط شعرها المتساقط كالمكنسة وبالتالي مثالية لمرضى الحساسية! كم من المرات سخرنا من والد "كوكو" واختراعاته التافهة!

انتزعتني "كوكو" من أفكاري وقالت: "هيا، ساعدنا في البحث."

سألتها مجددًا: "لماذا جئنا إلى هنا من الأساس؟"

نظرتُ لي "كوكو" وكأنني سألتُ سؤالًا غبيًا. من بين كل أصدقائي، كنتُ أنا الوحيد الذي يتردد على المكتبة، بل والوحيد الذي يقرأ الكتب، لأن الآخرين كانوا يستقون معلوماتهم من الإنترنت.

قالت "كوكو": "جئنا لنستعير كتابًا عن زراعة الحدائق، وماذا غير ذلك؟ لم نأتِ هنا لنلعب بالتأكيد!"

اقترحتُ قائلًا: "ولماذا لم تبحثوا على جوجل بكل بساطة؟"

نظرت إليّ "كوكو" بسخرية وقالت: "تلك ليست حديقة افتراضية، بل موجودة بالفعل على أرض الواقع. علينا أن نقوم بذلك بطريقة صحيحة. ولذلك، فنحن نحتاج إلى كتاب ماديّ وملموس مثله مثل زراعة الحدائق."

رأيتُ أن كلامها منطقيّ إلى حد بعيد وقمتُ بإرشادهم جميعًا إلى قسم الكتب المتخصصة في زراعة الحدائق.

قال "شولِّه" باستياء: "كله كلام فارغ!" كان "شولِّه" خبيرًا بالطبع في هذه المسائل ولم يكن بحاجة للبحث في المكتبة عن معلومات غير مفيدة، لأن كل هذه المعلومات كانت موجودة بالفعل في "مخه التخين". وإن كنتُ أسأل نفسي أحيانًا ما إن كان "شولِّه" قد وضع عقله جانبًا ونسيَ أين وضعه. خاصة عندما رأيته يرفع كتابًا لأعلى ويصيح قائلًا: "وجدتُ شيئًا عن الآفات!" فما كان من "تومي" إلا أن انتهز الفرصة وقال: "يسعدني أنك وجدت كتابًا عن عائلتك!" لا بد أنه علِم أنه بهذه العبارة قدَّم لـ "تومي" فرصة على طبق من فضة ليسخر منه.

قال له "شولِّه": "أنت تافه حقًا." قالت له "بيتي" بنبرة تحمل بعض المواساة: "لا تهتم يا شولِّه! إنه يتصرف هكذا لأنه لا يعرف طريقة أخرى."

رد عليها "تومي" قائلًا: "من هذا الذي لا يعرف طريقة أخرى يا 'بيتي بووپ'؟ أعرف مثلًا أنكِ واقعة في غرام هذا الفيل وتريدين التقرُّب منه؟"

التفتت بيتي إليه فجأة وشدَّت قبضتها لتلكمه في وجهه، ولكن "كوكو" سرعان ما تدخلت وقالت لهما: "كفى الآن! نحتاج لمعلومات عن زراعة النبات."

واصلنا البحث بحماس وأخذنا نتصفح بضعة كتب ولكنها كانت شديدة التخصص وبالتالي شديدة الصعوبة. ولكننا عثرنا في النهاية على كتاب أعجب الآخرين كثيرًا لأنه كان يحتوي على الكثير من الصور والقليل من النصوص."

توجَّهنا بالكتاب لـ "السيدة پفيرش" من أجل استعارته، فوجدناها تقول لنا: "لست واثقة تمامًا. لا يجوز استعارة هذا الكتاب، لإنه كتاب مرجعي. يمكنكم الاطلاع عليه في المكتبة فقط. ولا أعرف حتى من وضعه على الأرفف. لا بد أن أحدًا وضعه هناك عن طريق الخطأ. ولا يجوز لي أن أعطيكم إياه في حقيقة الأمر، ولكني سأدعكم تصورون منه بضع صفحات."

"أيتها السيدة اللطيفة صاحبة الابتسامة الساحرة والنظارة الأنيقة والبلوزة الصفراء المتألقة، إننا نحتاج لهذا الكتاب بشدة من أجل تقديم مشروع عن النباتات في حصة الأحياء."

شعرت "السيدة پفيرش" بالإطراء وبدا ذلك واضحًا عليها. لعلها لم تسمع كلمة حلوة منذ فترة طويلة.

قالت لنا بنبرة خبيثة: "لا بأس. ولكن أبقوا الأمر سرًا بيننا."

وقبل أن ننصرف وعدتُ "السيدة پفيرش" أنني سأعتني بالكتاب جيدًا وسأعيده إليها في الوقت المحدد. ثم غمزت لي بعينها ونحن في طريقنا للخارج.

وما أن خرجنا حتى ربت "تومي" على كتفي بقوة وقال لي: "أنت بارعٌ حقًا مع النساء! ينبغي أن أتعلَّم منك. إنها أصبحت كالخاتم في إصبعك!"

علَّقت بيتي ضاحكة: "أمر بديهي! لا أحد يقرأ في هذه الأنحاء سوى 'خلة'!"

تذمَّرت قائلًا: "اسمي ليس 'خلة'." كانوا يعرفون جيدًا كم أستاء حين يناديني أحد بهذا الاسم، ومن حسن حظي لم ينادونني به كثيرًا.

قررنا أن نذهب إلى منزل "كوكو" لنبحث في الكتاب عما نريده من معلومات.

سألها "شولّه" بحذر: "وهل سيكون والدكِ في المنزل؟" كان دائمًا ما يضطرب بعض الشيء في وجود أبيها.

كان والد "كوكو" شخصًا طيبًا حقًا، حتى أنه كان يسمح لنا بمناداته باسمه. ولكنه كان في الوقت نفسه غريب الأطوار مثيرًا للاهتمام مثل ابنته. لم يكن ينتمي لعالم الكبار، بل كان لديه عالمه الخاص ولذلك كنَّا نشعر أنه حليفنا.

ولكنّ "شولّه" كان يخاف بالأحرى من ماكيناته. وهو ما جعل "تومي" يفترض أنها كانت تذكره بمكاينات ذبح الخنازير الخاصة بأبيه. ولكنه كان خوفًا طبيعيًا من شيء مجهول. قالت العالمة "كاتيه ڤان ريپڤينكل" ذات مرة أن الإنسان استغرق ملايين السنين ليتخلى عن انحناءة قامته ويسير مستقيمًا. وأنه استغرق كل هذا الوقت لخوفه الشديد من الحيوانات المفترسة ومن الأشياء التي لا يمكنه السيطرة عليها، لأن انحناءة قامته كانت تساعده في الاختباء من العدو. هذا يعني أن الإنسان كان على ما يرام وأنفه في التراب. فلِمَ سنتغير إذن؟ وقد كان "شولّه" مخلوقًا روتينيًا. كان دائمًا ما يرضخ في النهاية وإن كان على مضض.

ما أن وصلنا إلى منزل "كوكو" حتى جلسنا في غرفتها على الفور وبدأنا نتصفح الكتاب. كان يأتينا من المطبخ صوت آلات يشبه التنهُّد. لا بد أن والد "كوكو" كان يعمل على أحد اختراعاته. كان دائم البحث عن إكسير الحياة وخسر وظيفته الأخيرة كمعلم للحرف اليدوية في مدرستنا لأنه راح يصنع "أخطبوطات حية" مع تلاميذ الصف السادس الابتدائي. وذلك بأن قام بلصق ديدان حيَّة على بيضات بلاستيكية وجعلها تزحف على مكاتب التلاميذ. كانت بالطبع تجربة ممتعة لتلاميذ الصف السادس، ولكن ليس للآباء الذين ثاروا غضبًا ولإدارة المدرسة التي اضطرت لفصله على الفور. وكنَّا كلما وجدنا بين الحين والآخر ديدان جافة في أنحاء غرفة الحرف اليدوية نصيح بأعلى أصواتنا من الاشمئزاز.

قالت "كوكو": "لنبحث الآن عن محاصيل يمكن زراعتها في شهر يوليو." أراد كل منَّا أن يسبق الآخر، فأخذنا ننتزع الكتاب من بعضنا البعض ونتصفحه بحماس.

صحت بعد وهلة قائلًا: "لنزرع كايل."

هتف "تومي" قائلًا: "أو نزرع شولّه لنحصل على شجرة من السجق."

"اصمت أيها البلقاني."

كررت "كوكو" اقتراحي مرة أخرى وقامت بتدوينه في قائمتها.

قلتُ: "وجدتُ أشياء أخرى؛ بنجر وسبانخ وفجل."

علَّقت "بيتي": "ما هذا القرف؟ لا أحد يحب هذه الأشياء. ما رأيكم لو زرعنا تلك الزهرة التي يسمونها 'وردة الحصان'؟ إنها تبدو جميلة حقًا!"

التفتنا جميعًا في آن واحد إلى "بيتي" وحدَّقنا إليها في ذهول. لم أكن الوحيد الذي تفاجأ بتعليقها هذا. لم نلحظ من قبل أن لديها حس جمالي وأنها تهتم بالورود وما إلى ذلك. ولم تكن "بيتي" شخصية رومانسية بطبيعتها، بل كانت فجة وتميل إلى العنف. ربما ورثت ذلك عن عائلتها. فلقد أخبرنا تومي ذات مرة أن الإجرام جين يُورَّث مثله مثل أي جين آخر. والأمر لم يكن يقتصر فقط على شقيقتها التي تحدثتُ عنها سابقًا، والتي تم القبض عليها بسبب تجارة المخدرات، بل كان أبوها مسجونًا أيضًا بسبب سطوه على بنك.

التفت إليها "تومي" وقال لها بأسلوب الراپ: "خدي وردة مني في وشك" "من إمتى بقيتي حبوبة – يا دبة يا دبدوبة."

تدخَّل "شولّه" مدافعًا عن "بيتي": "دعها وشأنها! هل كونك أحمقًا يجعلك تظن أن الآخرين حمقى مثلك؟"

رد عليه "تومي" وهو يبتسم: "أخيرًا أسمعتنا 'الفِشلَّة' صوتها قبل أن تدخل في حالة سبات مجددًا."

صاح به "شولِّه": "نظف أذنيك جيدًا واسمعني!"
رد عليه "تومي": "إنهما نظيفتان دائمًا يا دهن الخنزير."
اتقدت عينا "شولِّه" شرارًا.
ولكن، قبل أن يتسنى لـ "شولِّه" الرد على "تومي"، قاطعتهما "كوكو" وقالت: "وجدتُ شيئًا! كابوتشا وكرنب فجلي. لا تحتاج هذه النباتات للكثير من الرعاية وبالتالي فهي مثالية للمبتدئين أمثالنا."
قلتُ لها بحماس مبالغ فيه بعض الشيء: "نعم، يبدو هذا رائعًا!" كنتُ أشعر أحيانًا أنني قد تحوَّلت تلقائيًا إلى متحدث باسم "كوكو". لم أكن أفتقر إلى الأفكار ولا أحب التملُّق، ولكنها كانت أفضل من يدخل في صلب المسألة وينجز المهام. لم يعترض أحد، وبالتالي بات واضحًا أننا جميعًا متفقين على اقتراحات "كوكو".
التفتت "كوكو" لـ "شولِّه" وقالت له: "أيمكنك أن تحضر لنا بذور كابوتشا وكرنب فجلي من حديقة أبويك؟"
أجابها "شولِّه": "بالتأكيد!" "يمكننا البدء غدًا."
قالت "بيتي": "نحتاج أيضًا لفؤوس."
وقال "تومي": "ورشاشة."
وأضفت أنا قائلًا: "وجواريف."
أومأ "شولِّه" للجميع بثقة. كان هذا ملعبه. وكان يدرك تمامًا أنه في هذه اللحظة يلعب دور البطولة في مسرحيتنا الصغيرة ويستمتع بهذا الدور لأقصى درجة. "سآتيكم بحبل أيضًا لنتمكن من تحديد أماكن الأحواض بدقة. وكذلك مجرفة مسننة."
أومأنا جميعًا برؤوسنا بحماس. لم أكن أصدق أن غدًا سيبدأ كل شيء.
رأيت من حولي وجوه متشوقة مفعمة بالأمل وعيون براقة. سنصنع شيئًا حيًا بمعنى الكلمة، حتى وإن كان مجرد نبات.
أراد "شولِّه" أن يكون أول من يأخذ الكتاب معه إلى المنزل، ومن بعده "تومي" ثم "بيتي" ثم "كوكو"، لأحصل عليه في النهاية وأعيده إلى المكتبة مرة أخرى.
جلسنا فيما بعد لنشاهد برنامج الزراعة وشعرنا بعدها وكأننا صرنا خبراء. في هذه الأثناء، كان صوت 'التنهُّد' القادم من المطبخ قد تحوَّل إلى صرير ميكانيكي كما لو كان أحدهم وضع أحد أقارب "خلف خلاف"، الهامستر، على آلة التعذيب وأرسله إلى اللانهائية وما بعدها.

الفصل الثالث

هممتُ لارتداء حذائي البووت وأنا أدندن مع أغنية قديمة لفرقة "ثين ليزي": "أتعرفون من عاد اليوم بعد غياب؟ إنهم الفتيان الشجعان!" أوصتنا "كوكو" أن نرتدي ملابس لا نخشى عليها أن ننتسخ. وصلت إلى مكان الحديقة لأجد الجميع قد سبقني كالعادة.
بينما كان "تومي" منهمكًا في فحص أحد الجواريف التفت إلى "شولِّه" وقال له: "ثمة آثار دماء هنا. هل تقلبون النقانق بهذا الجاروف؟"
أجابه "شولِّه": "بالطبع لا، إنها بقايا طين فحسب أيها المعتوه."
قال له "تومي": "فلتذهب للجحيم."
رد عليه "شولِّه" قائلًا: فلتذهب أنت."
أجابه "تومي": "ليتني أستطيع، ولكن لا أحد يعرف الطريق مثلك!"
تنهَّد "شولِّه" بصوت عالٍ؛ فهذه المناقشة كانت دون مستواه.
التفتت "بيتي" لـ "تومي" وقالت: "لا تنس، هذا الجاروف يُستَخدَم في الحفر وليس بملعقة لتلعقه!"
نظر إليها "تومي" بتحدٍ وقال وهو يغمز لها بعينيه: "أنا واثق أنكِ تتلهفين لتقبيله."

قالت له "كوكو" بنبرة جادة: "لا داعي لاستخدام هذه التشبيهات السخيفة." تظاهرت "بيتي" بالغضب وكأنها تريد أن تضرب تومي بالجاروف. ولكنها كانت تمثيلية فحسب، لأن تشبيهاتها كانت، في حقيقة الأمر، أسوأ من تشبيهات "تومي" بكثير.

بدأنا العمل باقتلاع الحشائش الضارة من جذورها.